المشروع الحضاري عند مالك بن نبي

الأستاذة سلامة حدة

مقدمة:

جاء فيما سلف لقول ثبت عن الحسن البصري – رحمه الله- أنه ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة، فالتفكر والتذكر بدار العلم، وسبقته مطارحته، ومذاكرته تلقيحه، وهي حكمة استوحاها العالم من خلال مدارسته للقرآن الكريم والتدبر في آياته لابد لمن اجتهد وتفكر أن تكون نتيجة فكره: حالة تحرك القلب والوجدان، فتوجب الإرادة التي توجب بدورها وقوع العمل، فالفكر إذا هو مفتاح الإبداع والخطوة الأولى للبحث والتقصي والاكتشاف، وله يرجع الفضل في التمتع بالخيرات واعتلاء منازل الشرف بين الأفراد والجماعات وهو من أفضل أعمال القلب وأنفعها له، كما قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، والمقصود هنا التفكر والتأمل فيما يرضي الله ويعود على خلقه بالنفع والفكر كما قيل أيضا هو نقلة من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، والقرآن بين أيدي أفراد الأمة الإسلامية لهو الدليل الواضح لضمان حياتها الكريمة ومصدر سعادتها في الدارين – الدنيا والآخرة- ومن جعله قاعدة انطلاق لفكره ومجمع أموره كانت له الغلبة وسطعت شمسه في أوج الجلبة فمكن له الله بين الخلق تمكين محبة وإجلال واعتزاز لا تمكين مادة وابتزاز وهو ما حضي به الكثير من علماء المسلمين ومفكريهم عبر سالف القرون والأزمان وهذا ما بذلوه من جهد في سبيل تنوير هذه الأمة

إن هذا التفضيل والتكريم الذي ناله هؤلاء من نخبة الأمة كان ممن حاز عليه مفر ومجدد هذا العصر – مالك بن نبي- رحمه الله.

كان هذا المفكر مهموما بما يعانيه المجتمع العربي الإسلامي في واقعه والمتدني مستوا عن باقي شعوب العالم خاصة الغربية منها فمنذ أن استطعم معنى الحياة وأدرك رسالة الإنسان على هذه المعمورة حتى ازداد الرفض في قناعته لواقع فرض فرضا على هذه الشعوب الابية سلطة عليها المستعمر كي يتمكن من استغلال ثروات البلاد حيث سعى سعيا حثيثا لتدمير وشل وشد عقول الناس إليه والعمل على طمس هويتهم والنيل من مبادئهم التي ورثوها من منهج الإسلام الحنيف، هذا الهدي الرباني الذي شرع للناس مسار حياتهم المركبة بين الدنيا والآخرة هدفها الأسمى عبادة الخالق الأحد، وحيث لا يستقيم شأنهم إلا بخلق التوازن بين مظاهر حياتهم المادية واستيفاء واجباتهم الروحية والعقائدية، هنالك أين يتحقق الرضا النفسي وتحصل لهم السعادة في أسمى نشوتها وأصدق معانيها.

لفت انتباهي وأنا بصدد كتابة هذه المشاركة والبحث عنها في مجموعة الكتب التي ضمنها مالك بن نبي أفكاره وأشرف على نقلها إلينا صديقه المحامي عمر مسقاوي، تأثره الشديد بهموم ومشاكل مجتمعه مما جعلني أتجرأ على وصفه برجل المشكلات إذ يرجع له الفضل في تسليط الضوء على مختلف جوانب العلة التي جعلت المجتمع العربي الإسلامي ينحصر في دائرة التخلف الحضاري رغم سرعة قطار الحداثة والتطور في القرنين العشرين والواحد العشرين عند المجتمعات الغير بعيدة عنه، وهذا السبب في مختصر الأمر يرتبط ارتباطا كليا بتخلف الأفكار لدى من يشرفون على توجيهه يتميزون بالنظرة الضيقة للمستقبل وينهمكون في حماية مصالحهم الخاصة أو التناحر على ارتقاء أماكن الريادة والقيادة والسطوة والمال والجاه دون مراعاة لمصلحة الأمة فركب الأغلبية إن لم أقل الجميع بما فيهم أصحاب الشهادات موجة

الانشغال بالذات وتنمية المصالح والصفقات فأصاب حال الأمة الوهن، وأما من كانت النزعة فيه إلى حب الوطن والذود عليه بما استمكن من الفكر والإبداع فقد فرض عليه البقاء على هامش التحكم في مصيره فأصيبت هذه الشريحة باليأس والقنوط رغم المحاولات لإعادة توجيه الشراع إلى المسار الصحيح فأصبحت هاته الطاقات الكامنة تحمل في صدورها هموما ومشاكل تتعلق بالظروف الجديدة للأمة العربية تضاهي ما كان يحمله مالك بن نبي في فكره، فكيف تناول مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي من منظوره العام لمشكلات الحضارة؟

لعد طرق هذا الرجل المجدد مشكلة الأفكار في جميع مؤلفاته وركز على ذكرها في بعض عناويني كتبه: كالفكرة الإفريقية الآسيوية، وفكرة كمنولث إسلامي، ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

وقد إخترت الخوض في أفكاره عبر كتابه:

مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي لكونه: « قد جمع زبدة ما أنتج بن نبي»[4]، إضافة إلى بعض الكتب الأخرى التي تناولت مؤلفاته.

إن الإنسان هو المخلوق المعني والوحيد من عملية التغيير وهذا بهدف تجديد بناء طاقاته وقدراته الكامنة وهذا ليمتلك قوة أفضل ويكون محيطا وظروفا أرقى ليحسن الشكر والعبادة من خلال التصرف الحسن في عمارة الأرض التي استخلفه الله فيها، وكل محاولة للتحديث لا تنطلق من حيث يجب أو تستورد من أجل سد ضعف على مستوى فكر وأشياء الإنسان ولا تنسجم مع مبادئه وروح فكره ستكون عقيمة ونتائجها وخيمة.

لقد بات من الضروري العودة والاهتمام بالعلوم الأخلاقية والاجتماعية بدل التهور والاهتمام المطلق بالعلوم المادية والتي تعتبر خطرا يهدد المنظومة الاجتماعية العربية الإسلامية بعد ما ضرب لبنتها الأساسية – الأسرة – عبر مختلف الوسائل المستورة خاصة منها الإعلامية، حيث أصبحنا نعاني الأمرين

ونختنق بأزمتين – أزمة الفكر وأزمة الأخلاق – في مجتمع ما زال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم، حيث كلما تسارعت حركة التغيير والتطور خارج محيطهم ازدادوا توهانا وضلالا بسبب عقولهم المشدوهة والمشدودة لهذا التطور الذي أبهرهم فأمات فيهم كل حيلة لتدارك وضعهم فتسارعوا إلى إتباع ما يردهم وامتثلوا لتقليده دونما تفكير أو إعمال للعقل فأصبح العاقل بينهم يضرب كف بكف وينادي فيهم لا حياة لمن تنادي، ولو توقف هؤلاء لإلقاء مراجعة للذات لا إستبان لهم المسار الصحيح لنهج حضاراتهم والذي يختلف بالضرورة حسب مبادئهم التي تختلف عن مبادئ الشعوب الأخرى ويلتقي معها فيما يخدم الخير والإنسان للإنسان. فلكل طابعه ونمطه الذي يميزه عن الآخرين، ويحمل في مضمونه ما يخول لأتباعه تقدمه أماكن الصدارة بين الأمم والحضارات.

فلمفكرنا الفضل الجزيل في تنوير العقول العربية الإسلامية لهذا الأمر، ونجده كما حدد عناصر الحضارة في: الإنسان، التراب والزمن، حرص على توضيح أسلوبها الذي يتمثل في « الثقافة التي تحرك الإنسان عبر قنوات أربع هي: الأخلاق – الذوق والجمال – المنطق العملي والتقنية فإن مسيرة الحضارة هذه تسير بالمجتمع قوة وضعف دفعا وهونا، صعودا وهبوطا، تبعا لدرجة تمحور حول الأفكار أو حول الأشياء المحيطة به»[6].

ونجد هذا المجدد ينتقل بنا لتوضيح علاقة الإنسان في شبكته الاجتماعية يوحي الفكرة فيقول: «الإنسان حينما ينظم شبكة علاقاته الاجتماعية بوحي الفكرة في انبثاقها، فإنه يتحرك في مسيرته عبر الأشخاص والأشياء المحبطة به فيتخذ العالم الثقافي إطاره في إنجاز هذه المسيرة، ويأخذ طابعه تبعا للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة: الأشياء، الأشخاص، الأفكار»[7].

ويسترسل في شرحه مشترطا وجود توازن بين هاته العناصر لنحقق استمرارية الحضارة ويشير إلى أن استبداد أحد هذه العناصر أو طغيانه على

حساب العنصرين الآخرين يؤدي إلى أزمة حقيقية تلقي بهذه الحضارة خارج التاريخ وتضعها فريسة لطغيان الشيء أو طغيان الشخص.

إن مسيرة حضارة المجتمع نحو القوة أو الضعف يرتبط ارتباطا وثيقا بنوعية وجودة الأفكار التي انبثقت منها هذه الحضارة، والمناخ الاجتماعي والأشياء المحيطة به، إذا حسب ما قال بن نبي فإن لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، متوصلا إلى أن تماسك المجتمعات يعود حتما إلى الدور الوظيفي للأفكار التي تنظم فيه إرادة الفرد وتعمل على إطرادها ضمن شبكة العلاقات التي ذكرناها سالفا.

فبسبب الأفكار نجد الشيء في البلدان المتخلفة يفرض طغيانه بسبب ندرته مما يورث عقد الكبت والميل نحو التكديس الذي يصبح لاحقا إسرافا في المجال الاقتصادي، بينما وفرة الشيء في العالم المتقدم تجعله يسيطر ويؤدي إلى حالة من الإشباع تفرض شعورا من الرتابة يدفع إلى الهروب نحو الأمام مما يجعل الإنسان في العالم المتحضر يسعى دوما إلى تغيير إطار حياته.

أما طغيان الشخص فإنه يؤدي إلى نتائج سلبية في الإطار السياسي والاجتماعي تهدم بنيان الفكرة حينما تتجسد فيه، وهو ما نلتمس ثماره الآن في تجاربنا السياسية بالجزائر مثلا حيث يطغى المال الفاسد في شراء ذمم الضعفاء من الناس وإغواء الآخرين بالكثير من الشعارات الرنانة والجوفاء التي لا روح فيها إن لم نقل لا جسد فيها سوى الخيال الذي لا يشغل حتى حيزا من الفراغ، إنما الكثير من مستغلي طيبة الناس يفوقون الشياطين في تمثلاتهم وانقلاباتهم التي سرعان ما تتبادى وتظهر بمجرد حصولهم على مبتغاهم إذ بالنسبة إليهم كل ما هو أمام أعينهم سلعة تباع وتشترى حتى ابن آدم الذي كرمه الله على بقية الخلق فغزت المادة أرواحهم وعقولهم فغابت الأفكار لديهم وحل محلها الوثن كما قال بن نبي،

فعالية الفكرة وأصالتها:

يقول ابن نبي « الأصالة ذاتية وعينية وهي مستقلة عن التاريخ»[9]. لذا فهي هبة لا يستطيع الإنسان مهما اجتهد تغيير جوهرها وكذا هو الحال شريعة الإسلام السماوية فليس ضعف الأمة العربية الإسلامية دلالة على ضعف الإسلام وليس تطور وحضارة الدول الغربية دلالة على صحة أفكارها ومنطلقاتها كالرأسمالية والاشتراكية الشيوعية اليوم وهو ما استوحيه كمثل لما ذهب إليه مالك بن نبي في قوله « حين تبصر النور الأفكار التي صنعت تاريخ العالم، فإنها دائما فعالة طالما أنها أثارت العواصف وشيدت شيئا أو هدمته، أو أنها اكتفت بقلب صفحة من تاريخ الإنسانية، وليست هذه الأفكار بالضرورة صحيحة بأكملها فالفكرة تكون صحيحة أو باطلة في المجال العقيدي والمنطق العلمي والاجتماعي»[10]، إذا فالمغزى ليس بالفكرة وإنما يحاملها وطريقة تعامله معها، حيث يشير بن نبي أن نخبنا المسلمة لا تملك من الآلية ما يمكنها من التفريق بين الفكرة وأصالتها سواء في الجانب العلمي والتقني عبر الكتب المستوردة من جامعات الغرب أو في الإطار السياسي والاجتماعي حيث تقلد الآخرين ويضرب مثلا في شعوب عرفت كيف تستفيد من أصالة الحضارة والأفكار الغربية، عبر المناهج والأفكار وتوضيفها في نهضة دولها كاليابان والصين في منتصف القرن التاسع عشر والقرن العشرين حيث استغلتها في فعالية حركة المجتمع محافظة على روح وأصالة نماذجها الخاصة بها، وهو ما يطلب من المجتمعات العربية الإسلامية الآن، في أن تكف عن تمجيد أصالة فكرتها وتسعى جاهدة لاستعادة تقاليدها العليا ومعها حس الفعالية كي تضمن مواجهة عصرية ناجحة.

ثورة الأفكار:

لا سبيل لتحرك وقيام نهضة المجتمعات العربية الإسلامية إلا بقيام ثورة تحرك طاقتها تمتلك جهاز رقابة وتصحيح يستمد من أصالة الفكرة وموضوعية فعاليتها سبل تصحيحها.

« فالمشكلة مشكلة أفكار، والعالم الإسلامي منذ انحطاطه ما بعد عصر الموحدين يواجه مشكلة أفكار لا مشكلة وسائل»[11] إن الموروث من تراث الحضارة الإسلامية غدا أفكار ميتة بين يدي هذا الجيل حسب بن نبي، وأما النماذج الروحية لهذا التراث فقد خانته أفكاره الموضوعة التي خالفت النموذج المطبوع الذي أرساه العصر الأول (عصر الصحابة).

فماذا فعلت نخب هذا المجتمع؟ لقد ولت وجهها شطر العالم الغربي الذي طالما تقنص الفرص ليوقع في شباكه هذا الصيد الثمين والحقل الوفير لاستثمار ثرواته وتخفيف شدة ثوراته، ولنا نحن اليوم فيما يورده لنا الاستعمار المتجدد في أشكاله الكثير من الأمثلة الذي تفرض عبرها التبعية على هاته الشعوب المقلوبة عن أمرها كالفريسة التي راحت تشبع غريزتها من الظمأ فوجدت بداخل البركة مجموعة من التماسيح وعلى حوافها مجموعة من الضباع والأسود تتربص بها، فلو تتبعنا مثلا ما تصدره الدول الغربية إلى دول العالم الثالث والدول العربية بالخصوص من آلات وماكنات لا تكاد تكون طعما لتوريد قطع الغيار الذي تنتجها مصانعها من البترول المستورد من هاته الدول التي رضيت بالذل والضعف الفكري، ناهيك عن سيارات (جوتابل) لا تكاد صلاحية استعمالها أربع سنوات ضف أجهزة النقال والمحمول والدواء وغيرها، فأصبحت هاته الدول كالأنعام التي تنتظر الكلأ من موكلها يسمنها ليأكل منها، ذنبها أنه ليس لديها عقول تفكر بها، وفي الحقيقة هاته هي الفطرة التي خلقت عليها ولها، ولكن كيف بالإنسان صاحب العقل الذي يرضى بهاته المنزلة؟

هذا مل جعل البشر يصنعون حسب ما تنتج عقولهم إلى عالم أول وعالم ثان وعالم ثالث، أليس من العار أن ترض هذه الشعوب بهذه الوضعية دون أن

تفكر في خلاصها من هذا العلق والبرغوث البشري لدمائها؟ !، لقد كرم الله هذه المجتمعات بأفضل شرعة ودين وجعلها خير أمة أخرجت للناس وهيئ لها وقيض أفضل السبل، إنما تلهث وراءه خلف شطآن الغرب وتحت يد المستعمر لا يعدو إلا كمن يلهث من الضمأ فيغيثه عدوه بإناء من الماء المالح فلا يلبث حتى يطلب إناءا آخر من شدة الحر وهذا هو حال شعوب العالم العربي تطردها الحاجة وتجذبها الإغراءات فلا تلبث أن تطلب المزيد وتتناسى وتتغافل على أن ما يعطي لها ما هو إلا طعم يدفعها إلى التورط أكثر كما الحال بالنسبة للدول التي تعاني أزمات اقتصادية فتلجأ إلى الاستدانة من صندوق النقد الدولي الذي يملي شروطه عليها من أجل توريطها عفوا أنقاذها!.

لقد أشار بن نبي إلى أن تفاقم المشاكل الاجتماعية على هاته المجتمعات جعلت من ولاة أمورها يتذللون بالأفكار المقتولة بفعل الانحطاط ويستقدمون أفكارا مغشوشة ومسمومة أنبتت بحقول وعقول هاته الشعوب جذورا مدللا على أنها « لم تتمكن من إدراك نمط الحضارة الغربية في اندفاعها التطوري الفعال المستمد من أصالته المقيمة في حدوده الجغرافية، ولا هي أحيت نماذجها الأصلية في انبثاقها الروحي»[12]، ولا ينأ مالك بن نبي أن يراوح تفسيراته عن هذا الاستعمار المالك للأفكار المدمرة والذي يعتبر أشد أنواع الاستعمار فتكا بمصير الشعوب وأخطرها في القضاء على هوية وشخصية الأفراد والمجتمعات حيث يشير إلى أن « تضافر الأفكار الموروثة الميتة، والأفكار القاتلة المجتثة من جذورها الغريبة، جعلها تنتقم من العالم كما يتداعى جسر سيء البناء بالانهيار على من بناها»[13].

ويستدرك مالك بن نبي مصنفا الإنسان في عزلته إلى إنسان مادي كما هو الحالة في ثقافة الغرب، وصنف فكري مثلما هو الحال في الثقافة الإسلامية وأن المسلم مكلف يحمل فكرة وحيدة هي حب الخير وكره الشر وهو ما عكس يتجسد في الحضارة الأوربية ومضمون ثقافتها من الأشياء والأشكال ومن التقنية

والجمال، وما يتميز به الشرف الإسلامي في ثقافته المركبة بين فكرتين هما الحقيقة والخير.

فلسفة الإصلاح والتجديد الحضاري في فكر مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أن من شروط قيام النهضة وتألف الحضارة هو التجديد الدائم لمكتسباتها مثلما هو الحال في خلية مجتمع النحل التي تحافظ على حيويتها بسبب تضافر جهود عاملاتها « فالتجديد الحضاري لا يكون وراء تكوين حضارة فحسب بل يكون كذلك شرط تطورها، وما دام التجديد هو إنشاء شيء جديد في الجانب المادي أو المعنوي فإن تطور الحضارة يعني تجديد جانبها المادي والمعنوي باستمرار»[14].

ويذهب مالك بن نبي إلى ابعد من ذلك « فالحضارة في منظوره كي تثبت لدى أمة لابد من توفر شروط لها تستند عليها في استمراريتها وهي ذات أبعاد تاريخية، نفسية، واجتماعية، تبدأ في ميلادها كفكرة ثم تتطور كنسيج ذا طابع اجتماعي»[15]، وبالتتبع لمسار بعض المفكرين نجد مثلا أن المذهب الاشتراكي بدأ في أوله كفكرة جاء بها كارل ماركس ثم انتشر عبر بقاع نظم العالم، إلا أن الأمر يختلف في طبيعة وأصل المنطلق بالنسبة للحضارة الإسلامية التي منطلقها إلهي المصدر وتجمع في استمرارية تواجدها بين توازن كفتين إحداهما مادي دنيوي يعمر الحياة وينمو بالخير وبعبادة الله الواحد الأحد وبالاجتهاد فيها تتحقق الكفة الثانية المتمثلة في الدار الآخرة توازنها وكأن مالك بن نبي بتوضيحه لهذه الفكرة يعطي للحضارة نمط حياة الإنسان وتاريخه فتتمايز الحضارات حسب إستراتجية التجديد والبناء القائم على التخطيط وربط المبادئ والأفكار بالأهداف والغايات.

البعد الأخلاقي للتجديد الحضاري حسب مالك بن نبي:

يبحث بن نبي من خلال هذا المطلب كشرط لتحقيق النهضة إلى وجوب تحطيم الوضع الموروث من فترة التدهور والانحطاط بواسطة فكر جديد حيث يقول « من أول واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة»[16] وعليه فإن أغلب ما ألفه بن نبي لا يبتعد عن الفكر والإبداع في كل المشكلات الحضارية التي تطرق لها، كما يرى أن القانون الأخلاقي الذي تتضمنه العلاقة الاجتماعية التي هي في جوهرها قيمة ثقافية وعامل قوي يؤدي دورا ريادي في المحافظة على تماسك المجتمع ويضرب مثلا عن ذلك في سمو الخلق الذي تميز به الأنصار عند استقبالهم للمهاجرين في الرعيل الأول حيث وصلت بهم درجة الإيثار إلى أن تقاسم الرجل ماله مع أحد الصحابة بل وأحد زوجاته، كل هذا من أجل خدمة فكرة وهدف رسالي أسمى للتمكين لهذا الدين الجديد الذي أحدث ثورة على التقاليد والقيم الذي سبقته في الجاهلية فرفض منها ما استهجنه وثمن قيما أخرى كالكرم، ونصرة المظلوم. فحقق المجتمع آنذاك بهذه التصفية وصفا جديدا بقيم ومعايير جديدة أثمرت تواجد دولة إسلامية قوية لفترة طويلة، وهو بذلك يدعو إلى وجوب ترقية الفكر من أجل التوصل إلى النهضة فيقول « لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية ولم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها»[17].

مكانة ودور الأفكار في بناء الحضارة:

يعطي مالك بن نبي للأفكار مكانة أرقى في تكوين جسم الحضارة إذا اعتبرناها كالجسم الحي حيث « إذا كانت الحضارة في بعدها التشبيهي الوظيفي عند بن

نبي تمثل الثقافة، والثقافة تمثل الدم الذي يعذبها، فإن الأفكار تمثل جيناتها وبرنامجها الوراثي»[18]، وحسب هذا التحليل فإنه يبدو جليا أن هذا المحلل التاريخي للحضارة أعطى للأفكار قيمة رفيعة ونبيلة بل واعتبرها أساس تكوين هذا الجسم الحي إذ توازي مكانة العقل والروح للجسم فبدونهما لا تدب الحياة بهذا الكائن العجيب وهو يعتمد في ذلك على مبرراته التاريخية التي أخذها من تعاقب الدول والحضارات، كما يعتبر القيم للأمة أفكارا للنماذج المثالية الأصلية التي تتوارثها الأجيال عبر العصور وهي التي بفضلها يحافظ المجتمع على بقائه واستمرار يته في الحياة، فهي مطبوعة بذاكرته الأخلاقية وفي تفسيره لعالم الأفكار يحدد بن نبي نوعين آخرين للأفكار يظهران في المجتمع من تطوره التاريخي هما:

1- أفكار عملية تهتم بالجانب المادي (عالم الأشياء) في المجتمع وتعني التقنية والوسائل المنتسبة من خلال الأبحاث العلمية والتي يعتمدها الجيل بعد ما يكيفها مع واقعة المعاش للتلاءم مع مسيرته في الحياة « يواجه كل جيل بوسائله التقنية الظروف الخاصة بتاريخه، بعد أن يدخل عليها تعد بلا اقل أو أكثر يلاءم مسيرته»[19].

2- أفكار موضوعة: ويظهر هذا النوع من الأفكار كلما ابتعد المجتمع عن نقطة انبعاثه الأولى أثناء مسيرته التاريخية، إذ يسحبه ابتعاد تدريجي عن النماذج المثالية التي تعبر عن الأفكار المطبوعة، فيستفحل تأثير الأفكار الموضوعة حين إذ لتألفه التربة الثقافية الأصلية رغم أنها دخيلة « ويبلغ هذا الابتعاد ذروته عندما يدخل المجتمع مرحلة الغريزة إذ تمحي عندئذ النماذج المثالية وتخون الأفكار الموضوعة الأفكار المطبوعة»[20].

ويذهب بن نبي في تحليله إلى مسار هذه المعادلة بين النقطتين التي فحواها تنكر للأفكار المطبوعة التي تمثل الأصالة في المجتمعات العربية الإسلامية وإعجاب و تتبع بالأفكار الموضوعة والمستوردة من الثقافات الغربية دون

مراعاة الخصوصيات هاته المجتمعات لا يعد خيانة عظمى لذاكرة شعب طالما تغني وتشبث بهذه القيم وأن التساهل والتفاني عن النماذج الأصلية أو من إلى وضعية ثأر دفعت ضريبتها هذه الشعوب فـ « المجتمع الإسلامي هو بالتحديد في هذه اللحظة يواجه مشكلة بوجهها، إنه يعاني من انتقام النماذج المثالية لعالمه الثقافي الخاص به من ناحية ومن ناحية أخرى لانتقام رهيب تصبه الأفكار التي استعارها من أوربا، دون أن يراعي الشروط التي تحفظ قيمتها الاجتماعية، وقد أورث ذلك تدهورا في قيمة الأفكار المكتسبة، وقد حملا أفدح الضرر في نمو العالم الإسلامي أخلاقيا وماديا»[21].

خاتمة:

نستخلص من كلام مالك بن نبي أن تحقيق أي مشروع حضاري سيكون فاشلا ما لم يعتمد الأفكار الأصلية التي تأسس عليها المجتمع في انبعاثه التاريخي الأول، ومن هذا استوحى أن لا يمكن أن تقوم للأمة العربية الإسلامية قائمة ونهضة حضارة ما لم تعتمد الأفكار التي انبعثت عنها الحضارة الإسلامية في الرعيل الأول، وجعلها قاعدة لمواكبة أي تطور حضاري.

كل هذا يعالجه هذا المفكر العبقري في عصره الحديث في أفكاره ضمن ثلاثية تتفاعل عبرها المجتمع ويشكل منها نسيجه الثقافي تتكون من: الأشخاص، الأفكار، الأشياء.

الهوامش:

1- سورة البقرة، آية 221.

2- سورة البقرة، آية 219.

3- سورة آل عمران، آية 110.

4- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، ص7.

5- سورة الرعد، آية 11.

6- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 7 .

7- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص10.

8- سورة النساء، آية .76

9- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص11.

10- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص11.

11- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص12.

12- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص13.

13- نفس المرجع، ص13.

14- جيلالي بوبكر، الإصلاح والتجديد لدى محمد إقبال ومالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، 2010، ص46.

15- نفس المرجع، ص 4.

16- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1984، ص71.

17- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط3، بيروت، لبنان، 1969، ص23.

18- Noureddine Boukrouh, vivre d'Algérie, articles de presse (1970-1989), Ed.S.E.C Alger, p152.

19- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، ص41.
20- المرجع نفسه، ص159.
21- محمد بغداد باي، التربية والحضارة، بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، عالم الأفكار.